أبو المظفر الأبيوردي

شاعر العرب في القرن الخامس

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تتمة)

— ٦ —

فخر الأبيوردي بأمويته واعتز بها، ولكن عصبيته لبني أمية لم تورطه في العداوة التي أثارتها الفتن بين الأمويين والهاشميين، فهو يفخر ببني عبد مناف جميعاً لا يفرق بين هاشم وأمية كما يفخر بقرشيته وعربيته ويمدح العباسيين ويذكر مآثرهم، وإذا تحدث عن الصحابة وفي الخلفاء حقهم من الثناء والإجلال كما يتحدث المسلم الذي لم تخالط نفسه أهواء العصبية

يقول في مدح المستظهر بالله :

يا خير من بشرت بعد النبي به ... عدنانُ وادّرعت عِزّاً به مضر

أحيا بك الله ما كانت تُدلُّ به ... على قريش ومنها السادة الغرر

لك الوقار من الصدّيق تكنفه ... مهابةٌ كان محبّوا بها عمر

وجود عثمان والآفاق شاحبة ... ونجدة من عليّ والقنا كِسَر

وعِلمُ جدك عبد الله شِيب به ... دهاؤه حين أعيا الوارد الصدر

ثم يذكر الخلفاء العباسيين إلى المعتصم

ويقول في قصيدة يمدح فيها الرسول والخلفاء الراشدين :

وكلّ صحابة أهوى فالهدى معهم ... وغَرب من أبغض الأخيار مفلول

وأقتدي بضجيعيك اقتداء أبي ... كلاهما دَمُ مَن عاداه مطلول

ومن كسبان جوداً والسماح له ... عبء على كاهل العلياء محمول

وأين مثل عليّ في بسالته ... يمازق من يَرِدْه فهو مقتول

إني لأعذل من لم يُصفِهم مِقة ... والناس صنفان : معذور ومعذول

ونجده في قصيدة أخرى يفخر بالأمويين والعباسيين والعرب كلهم

— ٧ —

كان الأبيوردي شاعر العرب في القرن الخامس كما كان المتنبي شاعرهم في القرن الرابع ؛ فشعره ينطق بإباء العرب وعزتهم، ويُعرب عن طباعهم وأخلاقهم، ويتحدث بمآثرهم ومفاخرهم، ويمدح كثيراً من رؤسائهم، ويرثي لحالهم في عصره ويأنف ألاّ ينالوا حقهم. وهو كثير الحنين إلى بلاد العرب، تزّاع إلى البداوة تشبها بهم

والفرق بين أبي الطيب المتنبي وأبي المظفر الأبيوردي أن الأبيوردي أكثر قصداً في فخره وثورته وتحدثه عن مظالمه ؛ على أن له أصلاً في الملك يجعل كلامه أقرب إلى القبول وأدنى إلى التصديق

وكذلك يتشابه الشاعران العظيمان في النزوع عن الدنايا، والترفع عما فخر به الشعراء من معاقرة الخمر والاسترسال في الشهوات

ولا يعوز قارىء ديوان الأبيوردي الدليل على هذه الأخلاق والنزعات ؛ يقول في اعتداده بنفسه :

وإني إذا أنكرتني البلاد ... وشيبَ رضا أهلها بالغضب

كالضيغم الورد كاد الهوان ... يَدبّ إلى غابه فاغْتَرَبّ

فشيمتُ مجداً رسا أصله ... أمتّ إليه بأمّ وأب

ولم أنظم الشعر عجباً به ... ولم أمتدح أحداً عن أرب

ولا هزني طمعٌ للقريض ... ولكنه ترجمان الأدب

ويقول :

وما أنا ممن يملأ الهول صدرَه ... وإن عضه ريب الزمان فأوجما

إذا ما غشيت العار عني لم أبَل ... نداء زعيم الحي بشر أو نعى

والأبيوردي لا يرضى بعيشته، ولا يسكن إلى حاله، ولكنه يأنف أن يُسف إلى المطمع الدون، ويستكبر أن تضرعه الحاجة إلى الذل، بل يرى الدنيا كلها أصغر من أن تذل لها نفوس الأحرار. يقول :

قضت وطر آمالي الليالي فلم أبح ... بشكوى ولم يدنس عليّ قميص

أغالي بعرضي والنوائب تعترى ... وغيري يبيع العرض وهو رخيص

وقد علمتْ عليا كنانة أنني ... على ما يزين الأكرمين حريص

فظهري بأعباء الخصاصة مثقل ... وبطني من زاد اللئام خميص

ويقول :

وإني لأقرى النائبات عزائماً ... تروض إباء الدهر والدهر شامس

وأحقر دنيا تسترقُّ لها الطلى ... مطامع لحظي دونها متشاوس
تجافيت عنها وهي خود غريرة ... فهل أبتغيها وهي شمطاء عانس؟
أغالي برخصي في الخصاصة، والتي ... تراودني عن بيعه، وأماكس
وأصدى إذا ما أعقب الري نهلة ... وأزجر عيسي وهي رهيم خوامس
ولي مقلة وحشية لا تروقها ... نفائس تحويها نفوس خسائس

ويمثل في أبيات أخرى ما يتنازع نفس الأبي الذي بدلت أحواله غِيَرُ الزمان:

ولما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليل رخاؤها
وكان إلينا في السرور ابتسامها ... فصار علينا في الهموم بكاؤها
أسيئت بنا فاستعبرت وضلوعها ... على مثل وخز السمهري انطواؤها
ولو علمت ماذا تعانيه بعدنا ... لما شمتت جهلاً بنا سفهاؤها

إلى أن يقول:

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة عظماؤها
وجاست بنا الجرد العتاق خلالها ... سواكبَ من لباتهن دماؤها
فصرنا نلاق النائبات بأوجه ... رقاق الحواشي كاد يقطر ماؤها
إذا ما أردنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالي لم يدعنا حياؤها

وأنفة الأبيوردي وعفته لا ترضيانه بأدنى العيش، فهو طماح إلى العلى، ساع لها، مغامر من أجلها:

رأت أميمة أظماري وناظرُها ... يعوم في الدمع منهلاً بوادره
وما درت أن في أثنائها رجلاً ... ترخي على الأسد الضاري غدائره
أغرّ في ملتقى أوداجه سَبَد ... حمر مناسله، بيض عشائره
إن رث بردي فليس السيف محتفلاً ... بالنصل وهو وميض الضرب باتره

وهو يرى نفسه كفء المعالي التي يطمح إليها، وأهلاً لها بنسبه وهمته:

قُم درى فكم أسمو إلى أمد ... والدهر في ناظريه دونه شوَس
أبني عُلَيّ راماجدي فأدركها ... وكان في غمرة الهيجاء ينغمس
فأي أروعَ مني نهنهت همي ... وأي شأو من العلياء ألتمس

ويقول:

سأحمل أعباء الخطوب فطالما ... تعاشت على الأين الجمال القناعس
وأنتظر الحقبي وإن بعُد المدى ... وأرقب ضوء الفجر والليل دامس
فلله دري حين توقظ همتي ... مساورة الأشجان والنجم ناعس

هذه الأنفة وهذا الإباء وهذا الطموح وهذه الكبرياء التي أوحت إليه أنه دون مكانته، وأن عليه أن يطلب مكانة تليق به وبآبائه، أكثرت حديثه عن مباشرة الخطوب وركوب الأهوال في سبيلها والمحاربة من أجلها، يقول:

تقول ابنة السعدي وهي تلومني ... أمالك عن دار الهوان رحيل؟
فإن عناء المستقيم إلى الأذى ... بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك عيوك السراة مطهم ... وفي الكف مطرور الشباة صقيل
فثب وثبة فيها المنايا أو المنى ... فكل محب للحياة ذليل

وقال:

سواي يجرّ مفوفه التظنّي ... ويرخي عقد جبّوة المتنى
ويُلبس جيدَه أطواقَ نعمى ... تشف وراءها أغلال مَنّ
إذا ما سامه الأوْماء ضيماً ... تمرّغ في الأذى ظهراً لبطن
وظل نديم عاطية وروض ... وبات مريع باطية ودنّ
وأشعر قلبه فَرَق المنايا ... وأودع جسمه نعم المنى
وسلسلةُ اللجام لدىّ أحرى ... بمز في مباءته مُبينّ

إلى أن يقول:

وها أنا أوسع الثقلين صدراً ... ولكن الزمان يضيق عني

ويقول:

يا صاحبي خذا السير أهبته ... فغيرنا بمناخ السوء يحتبس
أترقدان وفرع الصبح منتشر ... عليكما وذماء الليل مختلس
إن تجهلا ما يناجيني لحفاظ به ... فالرمح يعلم ما أبنيه والفرس

سخط الأبيوردي وتحدثه بالثورة كانا نتيجة إبائه وطموحه وإنكاره المنزلة التي نشأ فيها كما كانا من سخطه للعرب واستكفافه أن تنزع المقاليد من أيديهم، وتوكل الأمور إلى غيرهم. فالنعرة العربية بيّنة في شعره، والأنفة للعرب مكررة في قصائده. قال في قصيدة يمدح فيها أبا النضر المرواني أحد أقاربه:

دهر تذأبّ من أبنائه نقد ... وأوطنت عربٌ أعقاب أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطفها ... فمن لها بزياد أو بحجاج؟

وكم أهبنا إليها بالملوك فلم نظفر بأروع للغاء قراج
وأنت يا ابن أبي الغمر الأغر لها فقل لقود أضاعوا رعيها: عاج
وألقح الرأي ينتج حادثاً جللاً إن الحوامل قد همت بإخداج
وإن كويت فأنضج غير متئد لا نفع للكي إلا بعد إنضاج

إلى أن يقول:

متى أراها تثير النقع عابسة تردي بكل طليق الوجه ميلاج
ولاج باب أناخ الخطب كلكله به ومن غمرات الموت خراخ
في غلة كضواري الأسد أحنقها
زأر العدى دون غابات وأحراج . الخ

وله قصيدة يمدح بها بعض الوزراء من أسرته أولها:

من رام عزا بغير السيف لم ينل
فاركب شبا الهندوانيات والأسل

ويقول فيها:

وخالفت هاشماً في ملكها عُصَب
ساروا ملوكا وكانوا أرذل الخول
حتى أتت صحبة الأجفان والخلل... الخ

ويقول في مدح أبي الشداد العقيلي يشكو حال العرب ويحرضه على أن يطلب لهم المكانة الجديرة بهم:

فإنه أبا الشداد إن وراءنا أحاديث تروى بعدنا في المآثر
فمن لي بخرق ثائر فوق سابح تردى بإعصار من النقع ثائر
إذا حفزته هزة الروع خلته
على الطرف صقراً فوق فنخاء كاسر
أترضى وما العرب غير لشملها توسدهم رملي زرود وحاجر؟
بهم ظمأ أدمى الجوانح برحه
وذموا إلى الشعرى احتدام الهواجر

وأما إعجابه بأخلاق العرب وحنينه إلى ديارهم في مدحه وغزله فيذكران بأبي الطيب المتنبي. فهو يحن إلى البداوة ويتغزل بالبدويات، وإذا تحدث عن أمانيه وأعوانه فالمثل الأعلى عنده فتيان العرب

يقول في قصيدة يمدح بها المستظهر بالله:

مضى كل فضفاض الرداء تميدع
أصاحب منه في الوقائع أروعا
غذته ربى نجد فشب كأنه شبا مشرفي يقطر السم منقعا
يريح، إذا ارتج الندي بمنطق،
كلاماً كأن الشيح منه تضوعا
ويروى أنابيب الرماح بمأزق
يظل غداة الروع بالدم مترعا... الخ

ويقول في قصيدة يمدح بها أحد رؤساء العرب:

وترويك في قبس حياض تظلها
ذوابل في أيدي ليوث خوادر
بنو عربيات تحوط ذمارها كماة كأنضاء السيوف البواتر

ويقول في مدح سيف الدولة صدقة بن دبيس:

له عمة لو ناء تفتر عن نهى علمنا بها أن الهمائم تيجان

وحنينه إلى البداوة وعاداتها يتبين في مثل قوله:

وأسرى يعيس كالأهلة فوقها وجوه من الأقمار أبهى وأبهر
ويعجبني نفح العرار وربما شممت بمرنيق وقد فاح عنبر
ويخدش غمدي بالحمى صفحة الثرى
إذا جر من أذياله المتعفر
ذا العيش إلا الضب يحرشه القنى وورد بمستن اليرابيع أكدر
بحيث يلف المرء أطنابَ بيته على العز والكوم المراسيل تنحر
وينشي ذواه حين يعتم للقرى ويسمو إليه الطارق المتنور

هذا طرف من أخبار هذا الشاعر العربي الأموي العظيم.

ولعل المتأدبين من شباب العرب يجدون في شعره متعة للنفوس الكريمة، وشحذ الهمم الطامحة، وتعطفاً من الكلام البليغ، اتفق على تجويده اللفظ والمعنى. ولعل الفرصة تتاح لبحث مفصل جامع في أدب هذا الشاعر

عبد الوهاب عزام

استدراك: ورد في المقال السابق في العمود الأول في السطر العشرين كلمة: معاوية، والصواب: معاوة

ابن المقفع

إمام البلاغة العربية وأحد الأساطين الثلاثة الذين أنشأوا النثر الفني في الأدب العربي وانتهت إليهم زعامته

ألفه عبد اللطيف حمزة المدرس بكلية الآداب

قدم له الأستاذ أحمد أمين بك عميد كلية الآداب

٣٥٠ صفحة الثمن ١٠ قروش صاغ والبريد ٣ قروش

يطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد علي بمصر